



الموضوع الثالث
كمال الإيمان

obeikandi.com

الموضوع الثالث

كمال الإيمان

الحمد لله رب العالمين، تبارك من في السماء عرشه، تبارك من في الأرض سلطانه، تبارك من في البحار عظمته، تبارك من في الحياة قدرته، تبارك من في الممات مشيئته، تبارك من أمره بين الكاف والنون، وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، لا تنحنى الجباه إلا له، لا تخشع القلوب إلا لعظمته، يا من يعلم حالنا، ويرى مكاننا، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا، أنت العليم في قربه، أنت القريب في علمه، أحطت بكل شيء علمًا، وبينت لكل شيء سببًا، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٤].

سبحانك يا ربنا لا نُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فأنت الحي القيوم، وأنت القاهر فوق عبادك، وأنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك، وأنت الظاهر فلا شيء دونك.

والصلاة والسلام على البشير النذير، السراج المنير، الصادق الوعد الأمين، نور الكمال، وكمال النور، محمد سيد الكونين والثقلين من عرب وعجم.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد عدد أوراق الأشجار، ومثاقيل البحار، وذرات الرمال، وعدد ما أظلم عليه الليل، وأشرق عليه النهار، وعلى الآل والصحب الأخيار الأبرار.

كيف أستشعر أن قلبي يتزلزل كما كان يتزلزل قلب الصديق والفروق رضي الله عنه؟ كمال الإيمان معادلة إيانية سهلة وبسيطة.. متى أستشعر أني مؤمن، وأن قلبي يتزلزل

كما يتزلزل قلب الصحابة رضي الله عنهم؟ الذي ينظر في أحداث المسلمين في هذه الأيام في فلسطين والعراق وغيرهما من بلاد العالم العربي والإسلامي ينبغي أن يقف موقفًا إيمانيًا طيبًا، هذا الموقف الإيماني نقيس به مدى الإيمان عندنا، كيف أقيس مدى إيماني وإيمانكم من هذه الأحداث؟ نقيس الإيمان بماذا؟ بالثقة بالله عز وجل واليقين في نصر الله، فما دام الله سبحانه وتعالى وعدنا بالنصر فإن الله لا يخلف الميعاد، هذه أمة منصوره نُصرت (بضم النون) بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]. أي: إذا تمَّ لك أيها الرسول النصر على كفار قريش، وتم لك فتح «مكة» فقد جاء نصر الله، وسيأتي نصر الله، ولكن متى يكتمل النصر؟ يكتمل النصر مع اكتمال الإيمان، لأجل هذا فإن بعض الناس الآن عندهم ذبذبة في الإيمان، وذبذبة في العقيدة، ويجب أن نعرف أن المسلم لا يتذبذب، ولا يأتيه الضعف أبدًا؛ لكن لأن هذه الأمة منتصرة بإذن الله تعالى، فإذا لم تنتصر هذه الأيام فإن نصر الله تعالى قادم؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم بدر وهو يقول ويرفع يديه الشريفتين صلى الله عليه وسلم: «اللهم نصرك الذي وعدتني»^(١).

نحن أحوج إليك يا الله، ونحن أحوج إلى نصرك يا الله، ونحن أحوج لأن نكون مما قلت عنهم في كتابك الكريم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

أي: فلم تقتلوا أيها المؤمنون المشركين يوم بدر، ولكن الله قتلهم، حيث أعانكم على ذلك، وما رميت حين رميت أيها النبي ولكن الله رمى، حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين، وليختبر المؤمنين بالله ورسوله، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويعرفهم نعمته عليهم، فيشكروا له سبحانه على ذلك، إن الله سميع لدعائكم وأقوالكم ما أسررتهم به وما أعلنتهم، عليهم بما فيه صلاح عباده.

(١) انظر: كتاب المغازي ١/٥٩، للواقدي ط. عالم الكتب - بيروت.

فاجعلنا اللهم نرمي بقوتك وبِعظمتك، فأنت القوي والعظيم، ونحن يا الله لا عز لنا إلا بك، ولا عون لنا إلا بالالتجاء إليك..

فلا تغتروا بما يفعله الظلمة في بلاد المسلمين، ومن هذا الذي في العراق ولبنان وغزة، لا تتزعجوا من هذا، لا تضعفوا من هذا، لماذا؟ قال تعالى: ﴿لَا يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

أي: لا تغتر أيها الرسول بما عليه أهل الكفر بالله من بسطة في العيش، وسعة في الرزق، وانتقالهم من مكان إلى مكان للتجارات وطلب الأرباح والأموال، فعماً قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتين بأعمالهم السيئة؛ إنها قوة زائفة؛ لأنهم في الأصل جناء، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُقِنُّونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْىٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

أي: لا يواجهكم اليهود بقتال مجتمعين إلا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق، أو من خلف الحيطان، عداوتهم فيما بينهم شديدة، تظن أنهم مجتمعون على كلمة واحدة، ولكن قلوبهم متفرقة؛ وذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون أمر الله، ولا يتدبرون آياته.

إن الله تعالى يعطي لنا درساً قوياً في سورة آل عمران من أراد أن يعرف فضل الله تعالى علينا، وكيف يأتي نصر الله تعالى لنا؟ وكيف نكون أمة ربانية محمدية مقاتلة؟ فليقرأ سورة آل عمران، ومن خلالها نعرف ماذا يريد الله ﷻ من أمة الحبيب ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]. أي: وكيف تكفرون بالله أيها المؤمنون، وآيات القرآن تتلى عليكم، وفيكم رسول الله محمد ﷺ يبلغها لكم؟! ومن يتوكل على الله، ويستمسك بالقرآن والسنة فقد وفق لطريق واضح، ومنهاج مستقيم.

فلا يغرنكم هذا البطش، فإن هناك إيماناً عند إخواننا أقوى من هذا البطش الذي يجري.. انظروا فإن الله تعالى يرسل الثقة في قلوبنا، فقال تعالى: ﴿لَا يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فِي آلِ لَيْدٍ ﴿١٣٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسَى أَلْمَاهُ ﴿﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].
أي: متاع قليل زائل، ثم يكون مصيرهم يوم القيامة إلى النار، وبئس القرار.

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]. أي: وألهنا أم موسى حين ولدته وخشيت عليه أن يذبحه فرعون كما يذبح أبناء بني إسرائيل: أن أرضعيه مطمئنة، فإذا خشيت أن يُعرف أمره فضعيه في صندوق، وألقيه في النيل دون خوف من فرعون وقومه أن يقتلوه، ودون حزن على فراقه، إنا رادُّوه إليك وباعثوه رسولا، فوضعت في صندوق وألقته في النيل.

إن كمال الإيمان والثقة في الله تتجلى في هذا الموقف (موقف أم سيدنا موسى ﷺ) والمنطق يقول: إذا خفت عليه فاحفظيه في مكان آمن، وضعيه في مكان آمن، وأبعديه عن الفرعون، هذا هو المنطق البشري، ولكن المنطق والعطاء الإيماني له مفهوم آخر، والعطاء الإلهي له مفهوم آخر.. فإذا خفت عليه ماذا تفعل؟ جاء الجواب غير متوقع، فقال تعالى: ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

وهذا المعنى يُستفاد به أيضًا عند النوازل، كما حدث في أحداث غزاة المجاهدة عام ٢٠٠٨م، فإن الله تعالى يأمر وهو الحافظ الحفيظ، وربك على كل شيء حفيظ.. كما في قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِيكُمْ فَاقْتَبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

انظر إلى الخطاب: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشره، إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر قد استعدوا لقتالكم، فاقبتوا ولا تهزموا عنهم، وادكروا الله كثيرا داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم، والظفر بعدوكم؛ لكي تفوزوا.

إن هذه الآية في سورة الأنفال عظيمة وقوية وشديدة في أسباب النصر، والتمكين في الأرض، فالذي يثبت القلوب ويربط على قلوب المؤمنين هو علام

الغيوب سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلُنَّ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَأَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. أي: بل ظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ولَمَّا يصبكم من الابتلاء مثل ما أصاب المؤمنين الذين مضوا من قبلكم من الفقر والأمراض والخوف والرعب، وُزِلْوْا بأنواع المخاوف، حتى قال رسولهم والمؤمنون معه على سبيل الاستعجال للنصر من الله: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب من المؤمنين.

تلاحظ أن رب العالمين عندما قال عنهم: ﴿ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ ﴾؟ رد عليهم: ﴿ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

ولكي نصل إلى هذا النصر القريب لا بد أن تكون عندنا ثقة كبيرة وعظيمة بالله، كما توافرت وتحققت عند أم النبي موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِتْرَابًا وَجَمَاعَةً مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]. هذه ثقته في الله، والتجاؤها إلى الله عز وجل، واعتمادها على رب العالمين.

موقف آخر في الثقة بالله:

سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا هارون عليه السلام عندما جاء الأمر لهما بالذهاب إلى هذا الفرعون الطاغية، فإنهما تعجبا أن يواجهها هذا الطاغية الفرعون، لكن الله تعالى قال لهما: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦].

أي: قال الله لموسى وهارون: لا تخافا من فرعون؛ فإنني معكما أسمع كلامكما، وأرى أفعالكما.

والمصيبة عندنا - إذا صح التعبير - أن الخوف عندنا زائد، والسخط عندنا زائد! إن الله سبحانه وتعالى لم يقل لهما: إني معكما، إلا بعد أن قال لهما أولاً: لا تخافا، فلا ينبغي لك أن ترتعش من عدوك، ولا ينبغي أن يسلب الإيثار من قلبك قبل أن تقابل

عدوك، وإنما تلقاه وأنت تعلم إنك لا تقاتله وحدك، وإنما يقاتل الله سبحانه وتعالى معك، وهذه مسألة إيمانية مهمة، فالمهم أن تواجهه وعندك إيمان؛ لأنك إذا قاتلت العدو بمفهوم العدة والعتاد والأسلحة فإنهم أعتى منك أسلحة.

وهكذا انتهت القضية في الأمة المحمدية، فالله تعالى ناصرها ومؤيدها، وعندما يهتز اليقين في الله جل في علاه، ويهتز اليقين في رسول الله ﷺ فإننا ننهزم قبل أن نحارب، هذه قاعدة مهمة.

واعلم أيضًا أن الفرج في الرضا واليقين، والحزن في السخط، أي أن الإنسان إذا لم يرض عن حكم الله ﷻ فإنه دائمًا يكون مهزومًا وحزينًا لا يسلم بالقضاء، يقول: فلان عنده وأنا ليس عندي، وهنا ينسلخ الإيمان من قلبه؛ فلا يصح للمسلم أن ينظر إلى ما في أيدي الناس؛ فإن معنى الرضا يخرج من قلبه.

رحلة موسى ﷺ:

ما زلنا نتحدث عن الثقة في الله، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. هذه هي الثقة، فسيدنا موسى ﷺ عنده ثقة في الله، فعندما طلبوا منه موعدًا كما في سورة طه رد عليهم سيدنا موسى برد الواثق بالله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحَى﴾ [طه: ٥٩]. قال موسى ﷺ لفرعون: موعدكم للاجتماع يوم العيد حين يتزيّن الناس، ويجمعون من كل فج وناحية وقت الضحى.

ولاحظ هذا المعنى أيضًا في السياق السابق للآيات؛ فرسول الله ﷺ عندما قال للرجل الذي جاء وقال له: إن أخي لا يستقر طعام في بطنه، فقال له ﷺ: «عليك بالعسل»، فجاء له مرة أخرى، وقال لرسول الله ﷺ: إن العسل لم يفعل شيئًا لأخي، فما زال أخي مريضًا، فأوضح له رسول الله ﷺ أن العيب في بطن أخيه، فقال: «صدق الله، وكذب بطن أخيك»^(١). فالعيب ليس في العسل الذي قال سبحانه عنه إنه شفاء،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم ٥٦٨٤، ومسلم رقم ٥٩٠١، عن أبي سعيد الخدري ر.ه.

ولكن العيب في الذي أخذ العسل، وشرب العسل؛ لأنه ليس عنده يقين بأن العسل سوف يشفيه، وعندما اكتمل اليقين في داخل هذا الرجل وشرب العسل فإنه شُفي من أول رشفة من العسل.. إذن لا بد من اليقين والثقة في الله.

معنى آخر في الثقة بالله:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. أقسم الله تعالى بربوبيته أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكامًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سترك بعد انتقالك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تامًا، فالحكم بما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة من صميم الإيمان مع الرضا والتسليم.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ لَهُمْ صِحَّةً فِي إِيمَانِهِمْ، وَإِيَابَانَا فِي حُسْنِ خُلُقِهِمْ وَنَجَاحًا يَتَّبِعُهُ فَلَاحُ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضُدَنَا، وَأَقِمْ بِهِمْ وُدَّنَا، وَكَثِّرْ بِهِمْ عَدَدَنَا، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرَنَا، وَأَخْبِي بِهِمْ ذِكْرَنَا، وَاكْفِنَا بِهِمْ فِي غَيْبِنَا، وَأَعِنَّا بِهِمْ عَلَى حَاجَتِنَا، وَاجْعَلْهُمْ لَنَا مُجِيبِينَ مُطِيعِينَ، غَيْرِ عَاصِينَ، وَلَا عَاقِبِينَ، وَلَا مُخَالِفِينَ وَلَا خَاطِبِينَ، وَأَعِنَّا عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ، وَبِرِّهِمْ، وَاجْعَلْهُمْ لَنَا عَوْنًا، وَأَعِدْنَا وَذُرِّيَّتَنَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا عَيْدِكَ وَبَنُو عَيْدِكَ وَبَنُو إِمَانِكَ، تَوَاصِينَا بِبَيْدِكَ، مَا ضِي فِينَا حُكْمِكَ، عَدَلْنَا فِينَا قَضَاؤِكَ، نَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِبِيعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ صُدُورِنَا، وَجَلَاءَ حُزْنِنَا، وَذَهَابَ هَمِّنَا وَعَمَمِنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ شَافِعًا لَنَا، وَشَاهِدًا لَنَا لَا عَلَيْنَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ مَكَانَ اللُّوعَةِ حَلَاوَةً، وَجَزَاءَ الْحُزْنِ سُورًا، وَعِنْدَ الْخَوْفِ أَمْنًا، اللَّهُمَّ عَجِّلْ لَأَوْلِيَانِكَ الْفَرَجَ وَالْعَاقِبَةَ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ كَفَّارَةً لِسَيِّئَاتِنَا، اللَّهُمَّ أَبْرِدْ شَهَوَاتِ الْقَلْبِ بِتَلْجِ الْيَقِينِ، وَأَطْفِئِ جَمْرَ الْأَرْوَاحِ

بِجَاءِ الْإِيمَانِ، يَا رَبِّ أَلْتِي عَلَى الْعُمُودِ السَّاهِرَةِ تُعَاسَةِ أَمْنٍ مِنْكَ عَلَى نُفُوسِ الْمُضْطَرِّينَ
سَكِينَةً، وَأَثِينًا فَتَحًا قَرِيبًا، وَاهْدِ الْحَيَارَى إِلَى نُورِكَ، وَضَلَّالَ الْمَنَاهِجِ إِلَى صِرَاطِكَ
وَالزَّائِعِينَ عَنِ السَّبِيلِ إِلَى هُدَاكَ.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.